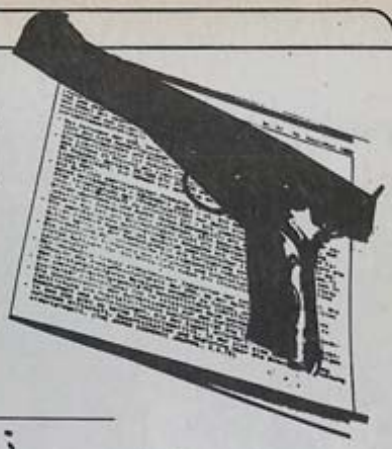

السجين رقم ١٢٧ !

زهيرة البيلى

تدور الأحداث هذه المرة فى قرية صغيرة ، عدد سكانها ٣٠٠ نسمة ، تقع على بعد ٩٥ كيلو مترا من عاصمة بوليفيا . . طرقاتها حجرية غير ممهدة . تبدأ وتضيع وسط طبيعة خلابة ، حيث المساكن الفاخرة التى تضم السكان الأصليين من الفلاحين البسطاء . وفى هذا اليوم بالذات – الأحد مساء – سارت امرأة فى طريق صغير هادىء . . وإذا بها على موعد فى لقاء رهيب فجأة . .

على بعد تحت شجرة كثيفة تحت المرأة فتاة جاثية على ركبتيها . فاقتربت منها أكثر وأكثر فإذا بها قد فارقت الحياة . جرت المرأة المسكينة فى حالة رعب تخطر البوليس الذى يمثله فى القرية حارس ريفى لم ير فى حياته جثة دامية . حيث كانت الفتاة قد أصيبت بطلقين ناريين فى الظهر . فارتمت على جذع الشجرة منهارة ، لتبقى فى هذا الوضع الغريب على ركبتيها وكأنها فى صلاة طويلة . وفى خشوع وجلال حملها الحارس بين ذراعية ، وذهب ليبعث بإشارة لبوليس العاصمة من مكتبه الصغير ، وجلس ينتظر بفارغ الصبر وصول المأمور والتين من المحترين . وبعد فترة وفى داخل المكتب الصغير سار المأمور فى خطوة حازمة ، وقد بدا نحيفا هزيلا . يحمل شاربا رفيعا فوق شفتين رقيقتين . وهو يدخن بلا انقطاع سيجارا رفيعا جدا . وبعد أن أضاف مكتبا صغيرا وبعض المقاعد فى هذه الحجرة التى بلغت مساحتها حوالى ٦ أمتار فى أربعة والتى طليت بالجير . . وبعد أن خلع سترته . ووضعها بعناية على ظهر المقعد . فتح التحقيق الذى بدأ باستجواب الحارس القروى الذى كان يشبه الهنود برأسه الكبير الذى جف من حرارة الشمس .

وقف بكل احترام ، ودون أن يشعر أخذ يعبث بإصبعه الصغرى فى خياطة بنطلونه . أما شعره الدهنى فتطوس من تحت قبعته العسكرية . قدم الحارس الريفى البسيط تقريره عن الحادث . . القتيل فتاة فى السادسة عشرة من عمرها ، ولدت فى أسبانيا . . كانت مخطوبة لشاب أبوه أغنى رجل فى المنطقة . وقبل ارتكاب الجريمة بعدة أيام فسخت الخطبة . وحزن الشاب حزنا شديدا ، وتردد عدة مرات على الفتاة ليعتفها على هذا الموقف ، وكان شابا لطيفا ينظم الشعر ، وليس من النوع الذى يقوى على القتل .

أما أسرة الفتاة فكانت من ذلك النوع الغريب . الأم فى الثامنة والخمسين . ولدت فى أسبانيا ، والأهم من ذلك أنها كانت تملك المجوهرات . وأمام هذه المعلومة الأخيرة بالذات لاذ الحارس بالصمت ، كما لو كان يترك الفرصة للمأمور لكى يستخلص أشياء وأشياء .

أخذ المأمور ينظر للحارس بعينين واسعتين ثم سأله :

« تملك المجوهرات . . وماذا فى هذا ؟ فهى ليست المرأة الوحيدة التى تملك مجوهرات . . وضح معلوماتك . »

فأضاف الحارس أن الملابس تأتى إليهم خصيصا من العاصمة . . فالابنة الكبرى للأم فى الثالثة والعشرين من عمرها من مواليد أسبانيا . أما أصغر الأبناء الذى يبلغ من العمر الثالثة عشرة فهو الوحيد الذى ولد فى فرنسا . وفى بداية الأمر كان أهل القرية يعاملونهم بتجاهل . . لأن الأم مطلقة وتعيش بمفردها . وقد تساءل الناس من قبل عن سبب وجودها فى هذا البلد ، ولماذا لا تقيم بالعاصمة ؟ كما لاحظ الناس أن هناك من يقوم بزيارتها من وقت لآخر . . وهو شخص لا يبقى طويلا فى زيارته . ربما ساعة أو ساعتين على الأكثر .

وبمرور الوقت تعود أهل القرية على هذا الوضع . فلم يجدوا ضررا من هذا الاختلاط . برغم أنهم لا يعرفون الكثير عنهم .

فكر المأمور أن أول المشتبه فيهم هو ذلك الخطيب السابق للضحية . . وبهذا ستكون العملية ليست معقدة بالنسبة له وفى الإمكان أن ينهى مهمته ويعود بسرعة إلى العاصمة . . وتم استدعاء الخطيب الشاب الرقيق الحالم ، الذى اعترف أن انفصال خطيبته عنه سبب له الحزن الشديد والألم ، وأنه تردد عليها عدة مرات ليثنيها عن عزمها . . لكن أن يقتلها فهذا مستحيل . واستطاع الشاب أن يثبت أنه فى فترة وقوع الحادث كان

مع صديق له ، وأنه يمكن التأكد من هذا بمجرد عودة ذلك الصديق من العاصمة . . وقال إنه أحس بالحيرة من ممثل صاحب فرقة مسرحية متجولة ، يمر بالقرية مرة كل عام . وأنه هو الذى وراء فسخ الخطبة .

مازال المأمور يعتقد أن العملية بسيطة . لذلك شكر الشاب على أقواله ، وطلب استدعاء الممثل المسرحى ولم يستغرق هذا وقتا طويلا . حيث دخل الرجل مسرعا لمكتب المأمور . وبدا كما لو كان ينتظر هذا الاستدعاء منذ فترة طويلة . . إنه ممثل خرج توا من القالب الكلاسيكى ، فى الثلاثين من عمره .

من ذلك الطراز « البلاى بوى » يتمتع بأنف مثل منقار الصقر ، وأجاب بصوت رنان مثير للدهشة وروى أنه كان يلتقى بالفتاة مرة فى العام . وفى آخر مرة اكتشف فجأة أنها تحولت إلى فتاة يانعة رائعة الجمال ، وأحس نحوها بحب ملأ قلبه ونفسه . فانطلق على الزواج .

وكانت ردود الممثل إجابات صريحة واضحة ، وقد بدا عليه الحزن الشديد . لكن هذا لا يمنع أن يكون له دور ما وتساءل المأمور عما إذا كان من السهل على ممثل أن يحيط عينيه بهالة من السواد ، فتبدوا غائرتين بهذه الدرجة . فقال الرجل للمأمور حتى لا يضيع وقته ، إنه بين الساعة الرابعة والثامنة . أى وقت ارتكاب الجريمة . كان فى المسرح أمام العربة التى يسكنها الممثلون . ويمكنه أن يتأكد من هذا فهم أناس كثيرون . ما عدا جارا واحدا لأسرة الفتاة شرسا يحمل الضغينة للممثل . . وبذلك ودون أن يشعر . قدم الممثل ثالث استدعاء ولكن هذه المرة أيضا أصيب المأمور بخيبة أمل . حقيقة أن العملية بدت بسيطة لكن المشتبه فيهم كثيرون .

اعترف الحارس بحبه للفتاة ، وأنها كانت قد صدته بشدة فباءت محاولاته بالفشل . . واعترف بكرهه لعائلة الفتاة ، حتى إنه وجه بعض التهديدات للفتيات . وفى إحدى المرات صفع أخاها الصغير لخفوة بسيطة . . إلا أنه مع ذلك استطاع أن يثبت أنه وقت ارتكاب الجريمة كان يلعب الورق مع بعض الأصدقاء الذين أكدوا أقواله على الفور . . وبذلك لم يبق أمام المأمور النحيف الذى يدخن سيجاره الهزيل . إلا قضاء الليلة فى هذا الركن البعيد .

فى اليوم التالى لم يسفر استجواب والدة الفتاة عن أية نتائج حيث أكدت المعلومات السابقة ، إنها حقا مطلقة صاحب مصرف أسبانى ، وأنها تعيش وتتولى الإنفاق على أولادها من النفقة التى يبعث بها الزوج كل شهر ، كما أن مواجهة الشهود وسماع التفاصيل العديدة من أهل القرية لم يسفر أيضا عن شىء جديد . فاضطر المأمور إلى تأجيل عودته إلى العاصمة يوما آخر ، ثم يومين ، وهكذا مرت الأيام التالية . حيث وجد نفسه ، على عكس ما كان يتوقع على رأس تحقيق غامض .

وبالرغم من اختفاء الأدلة أحس بأن القاتل قريب جدا ويسخر منه إلا أن شهادة وحيدة بدت غريبة ، فى أقوال شقيقة الضحية التى لم تكن إجاباتها محددة . وأحس المأمور أنها لا تقول كل ما عندها ، وكان على حق لأنه فجأة فى اليوم التالى ، يوم ١٠ أغسطس وفى الساعة العاشرة صباحا ، جاءت الأم فى حالة من الذعر والفزع والجنون إلى قسم البوليس . حيث وجدت ابنتها الكبرى جثة هامدة عندما عادت إلى المنزل ، وبسرعة انتشر خبر هذه الجريمة الجديدة . فامتلأ القرية كلها ، وتجمع المئات حول المنزل مثل البرق وعندما حضر المأمور ورفاقه الثلاثة من المحترين والحارس القروى كانت الضحية الثانية تجلس على المقعد أمام المرآة ورأسها مائل على صدرها . وعلى حافة الشفتين سال خطان رفيعان من الدماء ، صنعا بركة من الدماء تحتها ، وقد أصيبت بطلقين ناريين من نفس العيار ، مثل شقيقتها الصغرى .

وقد اخترقت الطلقة الأولى الندى الأيسر ومزقت الأخرى الشريان . وبعد المعاينة ثبت أن القاتل لم يدخل الحجرة التى كانت إحدى نوافذها مفتوحة ، وكان من الواضح أن الفتاة هى التى فتحتها . فلم يكن هناك أى أثر لاستخدام العنف . وقد تربص القاتل بالفتاة وانتظر خروج الأم وطفلها . ومن بين الأشجار الكثيفة وعبر النافذة المفتوحة صوب سلاحه إلى ظهر الفتاة التى جلست إلى المرآة تهتم بزينتها وارتكب المجرم جريمته بكل دقة لأن الإصابتين أدتا فورا إلى الوفاة .

فى الخارج كانت هناك بعض الآثار الواضحة التى تقود إلى منزل الجار ، حيث تختفى هناك . كما أن كلاب الحراسة لم يسمع لها نباح على الإطلاق . لذلك أصبح الجار أول المشتبه فيهم وأهمهم رغم أنه قدم ادعاء لا اشتباه فيه

لقد حير الحزن الدفين على أهل القرية

هذه المرة . لذلك كان على المأمور أن يعترف لرؤسائه بأن العملية بدأت تأخذ ابعادا أكبر مما فأرسلوا إليه من العاصمة اثنين من المحققين السريين . والفى عشر رجلا حيث قرروا بدء العملية من الصفر . وهذا يعنى أنهم فى اليوم التالى لوصولهم منذ الساعة الثامنة صباحا بدأوا من جديد فى استجواب المتهمين الثلاثة : الخطيب والممثل والجار الفيور . واستمر التحقيق حتى الساعة التاسعة مساء . وكان المتهمون كما هم . لكنهم انهاروا تماما من شدة الإرهاق والتعب . هذا مع العلم أن التحقيق لم يتقدم خطوة واحدة . ولم يتمكن البوليس من الحصول على اعتراف واحد .

وانتظارا لدورهم فى الاستجواب ، تجمعت الفرقة المسرحية ، وأسرة الجار ، بفارغ صبر بعد أن اختلطوا بسكان القرية الذين أذهلتهم الأحداث المتالية . وانتقدوا بحرارة ضعف البوليس .

وكانت الساعة التاسعة مساء عندما دبت الاضطرابات وسط الناس ، وتعالى صراخ النساء بشق ظلام الليل ، وأخذت الكلاب تنبح والأطفال تصرخ . ووسط هذه الضجة ظهر رجل اندفع فجأة ودخل كالاعصار إلى مكتب المأمور ودون أن يسترد أنفاسه قال :

« سيدى . كنت مارا بالقرب من منزل المرأة الأسبانية ، وسمعت صوت طلقتين ناريتين ، وحتى لا أكون ضحية جديدة فضلت الفرار » وهنا نهض المأمور على الفور ، وجرى يستقل سيارته ، ليكون بعد خمس دقائق أمام المنزل الذى بدأ فى ظلام حالك . وقد انقطعت عنه الحياة . حيث لا أثر لكلمة الحراسة . كما لم يسمع صوت الأم أو الابن . وبحذر شديد دخل المأمور والمحرون الحديقة ثم أخذوا يفتشون الموقع حول المنزل الصغير ولم يكن هناك أثر لقصوه أو صوت . ولكنه فى النهاية عثر على نافذة واحدة مفتوحة تسللها . وتحت ضوء البطارية الكهربائية اكتشف جثة الأم التى قتلت هى الأخرى بطلقتين فى الرأس ، كما لطخت الدماء الأرض والسجاد . أما الابن الذى يبلغ الثالثة عشرة من عمره فلم يكن له أى أثر . وبالبحث الذى انتشر فى الضواحى تم العثور على الكلبين . أحدهما هائم على وجهه بالقرية على بعد عدة كيلو مترات وقد تلطخ بالطين . والتصق شعره بجسده . وبدا عليه الإرهاق من الجرى ولسانه مدلى والآخر عثر عليه قتيلا إثر طلق نارى فى الرأس . وبسرعة فكر البوليس فى الاستعانة بالكلب الذى بقى على قيد الحياة لاقتفاء أثر المجرم . وسط الظلام الحالك ، وعلى أطراف غابة على مسافة أربعة كيلو مترات من القرية اكتشفوا آثارا عديدة لحوافر خيل حيث وقفت الخيول فى هذا المكان ولفترة طويلة . وهى « مربوطة » فى إحدى الأشجار كان هذا كل ما فى الأمر . وأقل الأمور غرابة . أما الفرد الوحيد الذى نجا من هذه الأسرة والذى يبلغ الثالثة عشرة من عمره فقد اختفى تماما :

وفى نهاية الأمر وبالرغم من كل شىء ذهب الناس ليخلدوا إلى النوم .

وفى اليوم التالى ذهب تاجر المواشى يحكى للمأمور أنه فى ليلة وقوع الجريمة لمح رجلين يختفيان وسط الأشجار وعندما مر أمامهما كفا عن الكلام .

لكنه تذكر أنه تعرف على صوت أحدهما ، وهو ابن العمدة الذى كان من المتسكعين . وهذا الشاب لم يستطع إثبات مكان وجوده أثناء ارتكاب الجريمة . كما رفعت بصماته من على زجاج نافذة حجرة الأم . أنكر ابن العمدة بشدة واحتج على موقف البوليس . لكن اللعبة استمرت مما فيه الكفاية . فأرسل على الفور إلى السجن المركزى بالعاصمة ، وعاد المحققون إلى العاصمة معتقدين أيضا أن مهمتهم قد انتهت ، إلا المأمور الغريل الذى كان يدخن سيجاره النحيف بين شفتيه وتحت شاربه الرفيع العاضب .

ولم يكن فى حاجة إلى خمسة عشر رجلا للوصول إلى هذه النتيجة حيث إن ابن العمدة لم يكن سوى واحد ضمن المشتبه فيهم ومن المتهمين الذين لا يعترفون لأن أحدا منهم لا يريد أن يقر أنه مذنب . فالأدلة أمام البوليس غير متوافرة . وأثناء عمليات البحث والتفتيش فى مسرح الجريمة ، تم العثور على صورة لرجل أثار اهتمام البوليس ، لأنه تلقى من انتربول مدريد تقريرا هاما يتضمن أنه فى يوم ١٦ سبتمبر عام ١٩٤٦ حاول أحد الضباط المتعصبين اغتيال رئيس جمهورية بوليفيا . وبهذا الأسلوب نشرت الصحف الخبر ، ولتنقل أية وجهة نظر لابد أن يكون الضحى معلقا سياسيا حذرا وعلى دراية بما يحدث فى بوليفيا فى هذه الفترة بالذات . .

وفى نفس اليوم تجمعت الجماهير الساخطة بالسجن المركزى واقتحمت زنزانة الضابط حيث قاموا بشنقه مع بعض المسجونين السياسيين الآخرين .

تصميم : م . ا

وبالطبع لم تكن هذه الحادث أية أهمية بالنسبة لتحقيق المأمور ، الا أنه نتيجة العصيان والتمرد فى عشرين سجنا ، من بينها السجن الذى يضم ابن العمدة لم يكن أمامه الوقت ليذهب بعيدا فقد استدعى المأمور فى اليوم التالى على عجل إلى العاصمة . وفى إحدى الحدائق العامة على مقعد خشبى اكتشفت جثة تعرف عليها على الفور ، فهى لابن العمدة . وأحس المأمور هذه المرة أنه تفوق على المحققين السريين فتناول سيجاره النحيف الذى أخذ ينفثه فى نشوة وانتصار .

وكان المأمور على حق . فهذا المسكين لم يكن سوى كومبارس فى العملية أما المجرم الحقيقى فمازال طليق السراح . وهو بالطبع الذى قتل ابن العمدة بعد أن تبين أنه يعرف الكثير . ولابد أنه غادر بوليفيا فى نفس هذه الساعة .

لم يستند المأمور فى تحقيقه إلا على صورة ذلك الرجل الذى يبلغ حوالى الخمسين من عمره . الصورة التى تم العثور عليها فى حجرة القتيل الأم . والتى تعرف عليها الانتربول كواحد من أهم الشرايين فى برشلونة . فهى لرجل حسن الهندام ، أسمر اللون ذى وجه صارم . . نزيل قديم بملحق جمعية حماية شباب برشلونة ، وعلى مدى أحد عشر عاما كان يحمل الرقم ١٢٧ . وفى سجلات الحالة الاجتماعية كانت بياناته كالآتى : « ولد يوم ٣ سبتمبر عام ١٨٨٦ ، مجهول الأب والأم . . وأنه منذ كان فى الحادية عشرة من عمره . حتى الرابعة والثلاثين من عمره ، كان يعمل فى السيرك . حيث مارس أعمالا عديدة متنوعة مختلفة والتى بفتاة حسناء وقع فى غرامها وعاشا لمدة سنتين فى سعادة تامة لتهجره — بعد ذلك — لتتزوج من صاحب مصرف . لكنه عندما عثر عليها ثانية كانت لها بتان . وقد طلقت من الصراف ، وأمام تلك الأحداث وقعت المرأة فى حيرة فاستأنفت حياتها مع رجل السيرك الذى رزقت منه بطفل . لكنها للأسف لم تجده نفس الرجل الذى عهدته فى الماضى . لقد بدا مختلفا تماما ، وأصبح شرسا مدمنا للخمر ، ولم يعد شريفا . الأمر الذى جعله يقضى بعض الأيام فى السجن . فانتهزت المرأة فرصة إحدى اختفاءاته الاضطرارية وقررت الرحيل لثانية مرة ، خوفا من غضبه وبطشه . والاستقرار فى بوليفيا وسط أولادها الثلاثة . أما بالنسبة لهذا الأب فقد كانت الأم والابن هما الشىء الوحيد الذى يربطه . يستحوذ عليه . ولم يكن وليد عد . ظل ينتقل على مدى ثلاثة عشر عاما فى العالم كله . وكان فى الحقيقة يبحث عنهما ، حتى لمح الأم وبنتيها وهذا هو الشىء الذى سبب له الجنون الحقيق . وارتكب جرائمه بالجملة ، الجرائم التى لا رحمة فيها ولا شفقة . وبعد أن ارتكب القاتل آخرها ، قرر خطف الطفل الصغير . هذا السبب فقط كان فى حاجة إلى من يساعده فتآمر مع ابن العمدة . وأثناء اعتداء يوم ١٦ سبتمبر ، ساعده على الهرب . . إذ كان القاتل ضمن أول المتظاهرين الذين هاجموا السجن . فأطلق سراحه ولكن ليسكنه إلى الأبد فى نفس الليلة .

بقى الآن على البوليس أن يعثر على هذا الأب المجنون وابنه المختطف . وتتوالى الأحداث فى ظروف غير متوقعة . ففى يوم ١٠ نوفمبر عام ١٩٤٦ سارت عربة تجرها الخيول ، تعدو فى برشلونة عندما تعطلت سيارة أحد رجال البوليس الذى ارتدى الملابس المدنية . فشاهد العربة التى بها رجل وابنه فأشار رجل البوليس إلى الحوذى ليتوقف . وبعد السير عدة لحظات جلس رجل البوليس ، أمام الرجل الذى بدا هادئا من الظاهر . أما الطفل فأخذ ينظر حوله فى دهشة وفزع يتأمل المدينة الكبيرة . لفت نظر رجل البوليس ذلك التشابه الواضح بين الطفل والرجل ومن صور تلقاها صباح نفس اليوم من الأنتربول تعرف على القتير على القاتل الهارب . لكن القيام بأية محاولة داخل العربة مخاطرة كبيرة . لذلك طلب رجل البوليس من الحوذى أن يتوقف أمام جراج ليسأل من فيه عما إذا كان فى الإمكان إصلاح سيارته . وبعد لحظات عاد الرجل إلى العربة قائلا إنه لم يعثر على أحد ليقوم بتلك المهمة وأكد أنه سوف ينزل فى مكان قريب . لقد بعث رجل البوليس أثناء غيابه بمن العربة بإشارة إلى أقرب نقطة .

دون أن يدرى أحد ولهذا فبعد أن سارت العربة ٦٠٠ متر ظهرت فجأة سيارة البوليس الضخمة لتقف بعرض الطريق وتمنع مرور العربة التى تجرها الخيول . وقفز أربعة من رجال البوليس داخلها ووضع القاتل يديه فى جيبه لكنه تردد لحظة فأخرجها فارغة . . وقال إنه لم يشأ إطلاق النيران من أجل ابنه ، الابن الذى سلم لجمعية حماية شباب برشلونة حيث كان الأب فيها من قبل بحمل الرقم ١٢٧ وإذا كانت هذه عودة لطبيعة الأمور . . فإنها كانت طائلة